محادثة ثالثة لغويّة

لحضرة الاستاذ رشيد افندي الشرتوني محرّر البشير ومدرّس الخطابة في كليّة القديس يوسف

جرت هذه المحادثة بيني وبين الشابين اللذين عرفهما القرّاء. واسم الاول ثعلبة وهو مكابر عنيد اتخذ المواربة والمماحكة سلاحاً لنصرة شيخه. واسم الثاني عَقل وهو من الذين صفت اذهانهم وكرمت اخلاقهم ليس لهُ مطلب غير الحق واليك ما دار بيننا من الكلام:

(ثعلبة) ما كنت أريد زيارتك اليوم غير اني اطلعت في المشرق على رواية ما جرى بيننا من الحديث في بعض المسائل اللغوية فجئتك عاتباً على نشر مثل هذه الامور في مجلّة سيّارة

(انا) لا داعي لعتبك لانني لم أسئك وقد نشرتُ ما نشرتهُ خدمةً لبعض الكتبة لئلا يضلّوا باقوال شيخك وينخدعوا بزاعمه التي لا سند لها سوى رأيه الفائل. ومع ذلك فانا مستعدّ للتصريح باسمك في المشرق اذا عدتَ الى ما كنت عليه من المكابرة

(ثعلبة وقد احمرّت عيناه) اطلب منك قبل كل شيء ان تحترم الشيخ ولا تتجرأ على مقامه واذا ذكرتهُ فبخّر فمك...

(انا) اوى انك عائد هذه المرّة بنغمة جديدة فاذا كان غرضك ان تنقلب هذه المحادثة الادبيّة الى مشاجرة ومناقرة فانا من اهلها فارجع الى حيث أتيت واكفني شرّ لقياك

(عقل) ما هذه الّا بادرة فرطت منهُ على غير قصد وقد دفعهُ اليها اعتقادهُ ان شيخهُ من اهل العلم باللغة فاسألك ان تغتفرها لهُ

(انا) ان من كان عاقلاً ينبغي ان يبني اعتقادهُ على أساس فان لم يفعل كذلك حُسب جاهلاً

(عقل) هذا هو الصواب بل هو شان كل امرئ لديه مسكة من عقل

(ثعلبة) لقد اظهرت ترفاً في غير محله فاسألك ان تتجاوز عما فرط وتأذن لي ان اسألك عن بعض الكلم

(انا) اسأل عما بدا لك

(ثعلبة) هل يقال خَفَرْتُ ذِمَّتَهُ

(انا) نعم يُقال

(ثعلبة) اما قرأت المقالة التي كتبها العلامة اللغوي الشهير (!!!) الشيخ ابرهيم اليازجي في مجلة الضياء وفيها غلّط ابن معتوق في بيته المشهور الذي يقول فيه:

« خفرتْ بسيفِ الفتح ذمَّةَ مقفري »

(انا) نعم قرأتها ورأيت ان هذا الشيخ الذي يدّعي بسطة العلم ويتطاول على جهابذة الشعراء ومشاهير اهل الانشاء قد غوى وضلّ فقد زعم انهُ لا يقال « خَفَرَ ذِمَّتهُ بل أخفرها وخَفَرَ بها » وهو زعم غير صحيح

(عقل) قد عرفتني انظر الى القول لا الى القائل ولا يتغلّب عليَّ الّا البرهان فهل لك ان تثبت قولك بدليل

(انا) أليست كتب اللغة واستعمالات البلغاء هي الحكم الوحيد في هذه المسائل

(عقل) بلى ولكن هل من لغويّ يقول انهُ يجوز استعمال « خَفَرَ » متعدّيًا بنفسه الى الذمّة ونحوها

(انا) هذا ابن منظور الذي كان من ائمة اهل النحو واللغة يقول في كتابه لسان العرب المشهور : « خُفرت ذمّةُ فلان خُفُورًا اذا لم يُوفَ بها ولم تتمّ وأخفرها الرجلُ وقال الشاعر :

فواعدني واخلف ثمَّ ظنّي وبئس خليقة المرء الخُفورُ

وهذا من خفرتُ ذمَّتَهُ خفورًا »

(ثعلبة) وهل يصحّ الاعتداد بكلام رجل واحد ؟

(انا) نِعمَ المحاكمة خصلتُك واذا كان لا يرضيك ابن منظور وحده فاسمع ايضًا ما جاء في التاج في مادة خَفَرَ : « قال شمرٌ خُفِرتْ ذمَّةُ فلان خفورًا اذا لم يُوفَ

بها ولم تتمّ وأخفرها الرجل " فهل تكتفي بهاتين الشهادتين ؟

(ثعلبة) أريد ان تأتيني بكلام مؤلف شهير او شاعر نحرير استعمل خفر متعدياً بنفسه

(انا) ان اول شاهد هو بيت ابن معتوق الذي تقدم ذكره وكل احد يعلم ان لابن معتوق منزلة كبيرة بين الشعراء واهل الادب

(عقل) حانَ لك ان تعرف طبع ثعلبة فزده شهادة أخرى ثمّ خلِّ وشأنه قنع او لم يقنع

وكان بين يديَّ اذ ذاك نهاية الارب في فنون العرب للنويري فاخذت أقلبهُ فقرأت

في الصفحة ٢٦ منها ما نصهُ : " يقولون هذا الامر يحدو بي الى كذا اي يسوقني اليهِ فيعدون الفعل الى الشخص بالباء والى الامر بالى والصواب تعديته الى الاول بنفسه لان اصلهُ من حدو الابل . . . الخ "

(ثعلبة) يا ليت الشيخ ابرهيم لم يكتب هذه المقالة فقد جرَّت عليهِ الوبال واسقطت منزلته عند العارفين فقد بيتَّ لهُ فيها حتى الآن نحو ستين غلطة مع انَّها لا تزيد على ستين صفحة . وماذا يعمل مريدهُ اذا اراد الدفاع عنهُ واقوال اللغويين واستعمالات البلغاء متظاهرة على تخطئتهِ ؟

(انا) اتظن ان في هذه المقالة ستين غلطة فقط قرّ قليلك وقل فيها مئة وستون بل اكثر من الاغلاط التي ارتكبها شيخك . وسأوضح لك هذا كلهُ تباعاً وأنشر محادثاتنا في المشرق ليطلع عليها ايضاً من لهم اهتمام بهذه الامور

(عقل) ارى انك قد ذهلت الجواب على سؤالي

(انا) إسمع ما جاء في لسان العرب : « حدا الابل وحدا بها زجرها خلفها وساقها » وقال صاحب التاج : « حدا الابل وحدا بها حَدوًا وحُداء وحِداء زجرها وساقها »

(عقل) تكفيني شهادة هذين اللغويين العظيمين فانهما يصرحان بان حدا تتعدى الى الشخص بالباء فزعم الشيخ ابرهيم اذًا مردود لا يصححهُ لا استعمال البلغاء ولا كتب اللغة

(ثملة) احكي لك الصحيح اني أحب الشيخ

(انا) وانا كذلك احبهُ فان السيد المسيح أمر ان نحب كل الناس حتى الاعداء فكيف لا نحب الشيخ ؟

(ثملة) قلت لك قبلًا انك من الجزويت واكرر الان قولي لاني كيفما خاطبتك

وعدم تحقيق ولو راجع امهات اللغة لكفي هذه الزلة التي اضافها الى سائر زلاته فقد قال ابن منظور : « الصُفار صُفرة تعلو اللون والبشرة » وكثير من الكتبة والشعراء استعملوا ايضاً هذا اللفظ ومنهم الارجاني حيث يقول :

وما كان لون التبر ذاك وانما علاهُ لخوف الجودِ منك صفارُ

قلت هذا والتفتُّ الى ثملة فرأيتهُ قد تغيّر لونهُ والدمعة تجول في عينيه من شدة غيظهِ ثم ودّعني وقال لن اعود الى جدالك مرّة أخرى وتبعهُ عقل يسلّيهِ ويسألني ان يعود اليَّ بعد اسبوع لمسائل لغوية